## المثقف بين الحوار والرشق بالنار

# مشكلتنا مع «الآخر» اليوم أنه يملي علينا شروطاً ولا يريد أن يحاورنا !!

□ كم هي موحية ومؤثرة ومستمرة للتعبير عن جدلية العلاقة بين الفكر والسلطة وبين مطلبٍ المفكر ومطلب السياسي صاحب القرار، بين هاجس المعبِّر وهاجس المدبِّر، تلك العبارة التي وردت في حوار مقتضب دار بين الاسكندر المقدوني والفيلسوف ديوجين أو إيسوب، إذا لم تخني الذاكرة، حيث سأل القائد الفيلسوف الجالس وقد وقف أمامه ذات صباح وظله يمتد عليه، سأله بإخلاص ومودة قائلاً : ماذا أستطيع أن أقدم لك أو أن أفعل لك وأنا القائد الذي يستطيع أن يمنحك ما تريد؟

فأجاب الفيلسوف ببساطة وصدق : أبعد ظلك عن شمسي، وقد تفاوتت الرؤية بين الرجلين، ومن الطبيعي أن تتفاوت، لأن الرؤية للحياة وللناس بعين الفكر والإبداع من موقف حضاري يستشرف المستقبل بأمل، تختلف عن الرؤية لهما من موقع المسؤولية والقوة والسيطرة وإحكام القبضة على الأحياء في الحياة من وجهة نظر سياسي مسؤول أو سلطوي متحكم..

**علي عقلة عرسان #**

الأولى تفتح الأفق والعقل والقلب لنرى بالبصيرة أبعاداً إنسانية وحضارية ومستقبلية، والثانية ترى بالبصر الحسير ما يلقي عليه المبصر القبض بإرادة ترى أنها الأفضل للأحياء والحياة، تلك تتشوف السعادة فتصنع حضارة بغنيها التنوع، وهذه تتطلع إلى الأمن والبقاء في الغنى فتصنع فقراً يكرس نمطاً بشرياً من العيش والسلوك قد يضيق وقد يتسع ولكنه يبقى واحداً وفوقياً وتسلطياً على نحو ما، فهل يمكن القول انطلاقاً من هذا أن الجدل أو الحوار أو الصدام بين العقول والإرادات وتقديم الحجج والبراهين والذرائع إما في إطار منطقي يحكمه العقل أو يقدمه على سواه أو في إطار أمني يتذرع بالعدل والاستقرار ويعليهما على ما سواهما، هو الذي أدى مرحلة بعد مرحلة إلى نقلة معرفية جعلت الوعي البشري يسيطر على مفاصل في الطبيعة والحياة والعلاقات ومن ثم يعيد ترتيب البيت الداخلي للإنسان عقلاً وروحاً ووجداناً ومشاعر وعلاقات بما يمكن من الانتقال من موقع حضاري إلى آخر حتى وصل الإنسان إلى تقدم عقلي وحضاري ملائمين؟! وهل ما زال الحوار يلعب هذا الدور في حياة البشر ويؤدي إلى تفاهم في كثير من الحالات التي يكون فيها مناخه صحياً وصحيحاً وأطرافه راغبين في التوصل إلى نتائج طيبة بحس سليم ومسؤولية تامة وموضوعية لا غنى عنها لحوار ذي نتائج مفيدة ومرضية؟

إنني أرجو ذلك وأتطلع إليه، وأراه أحد أفضل المداخل للتغير وحسن التدبير.

نهتم اليوم بالحوار واستكشاف آفاق مستقبل ثقافتنا العربية، والأمة في شدة المحنة وقسوة الامتحان، محنة السياسة والثقافة وامتحانهما في ظل تحديات كبيرة وخطيرة في الداخل والخارج، لمعنى الوجود وجوهر الثقافة وفعالياتها وقدرتها على التغيير والأداء والبناء في ظل احتلال صهيوني - أمريكي يتوسع في مساحات الأرض والفكر والإعلام منفذاً مرحلة في سلسلة استهداف أشمل وأعمق للسياسة الثقافية والجغرافية السياسية في المنطقة العربية.

وأمامنا محنة الشعب الفلسطيني المستمرة بين القتل والدمار وحصار أسوار الحقد التاريخي والعزل العنصري ويهودية الدولة المحتلة وما ينشأ عن ذلك من تسفير وقضم للأرض وتهويد للقدس وتناسل لمشاريع من رحم شريرة واحدة تهدف إلى تصفية المقاومة والانتفاضة وحق العودة وصمود الإرادة الشعبية في ظل «فرجة» مبكية، وأمامنا - أيضاً - احتلال أمريكي - بريطاني للعراق يؤسس لتغيير وجهه العربي ومسؤولياته القومية وجعله مرتكز انطلاق للهيمنة، والتدخل في الشؤون السياسية والثقافية والتربوية للبلدان العربية والإسلامية ويهدد منه دولاً محددة وما يترافق مع ذلك وينجم عنه ويمليه من آداب وسلوك ومفاهيم ومصطلحات ومزاج عام.

وحيال هذا التحدي وخلفياته وأهدافه البعيدة يلح علينا السؤال : ما هي أهداف تربية وسياسة وثقافة ومؤسسات وآفاقها في مجتمع يستشعر الخطر على وجوده وعلى كل ما يبنيه وهو في ظل احتلال وتحت تهديد مستمرين ويعيش حالة أقرب إلى السكون وحوله تقدم علمي هائل يحرزه أعداؤه والطامعون به، في الوقت الذي يشده فيه تخلفه وتسلط حكامه وفساد أنظمته وضياع حقوق أفراده وحرياتهم وفقدانه الأمن من جوع وخوف، إلى الوراء، ويجعله كل ذلك بمواجهة الإحباط وأزمات في الكثير من ميادين الحياة؟

هل يريد أن يضع أهدافاً منها التقدم والسعادة والتغلب على الطبيعة بالثقافة العلمية والمعرفة الشاملة ويكتفي من ذلك كله بالشعارات بينما يتردى في الحفر؟ أم يريد أن يتحرر من الداخل ويعيش حالة من المساواة والشعور بالمشاركة في صنع القرار والمصير ونعمة الحرية والأمن ليعمل من بعد على التقدم بالعمل والمواجهة بالأمل؟! أم أنه يعمد إلى التضحية لإحداث الصدمة والصحوة ولإحراز النصر بالشهادة أولاً لتحقيق حرية أرض وإرادة وقرار وسيادة وطنية وقومية فوق أرضه التاريخية ومن ثم يتحمل أعباء بناء شامل : فردي واجتماعي وقومي، اقتصادي وعلمي وتقني ومعرفي، للتغلب على أوضاع وسياسات وأعداء بأساليب علمية وتقنية متقدمة، أم أنه يرى أن الوصول إلى هذه الأهداف يقتضي قلب ومحاولات تخريب، وندرك معنى التركيز السلبي على الشخصية الثقافية والهوية القومية، أي على :

١- اللغة بماهيتها وخصائصها، بوصفها حاملاً للمعرفة ولأهم أدواتها، وأداة تفكير وتعبير وتواصل، وموطن ذاكرة حياة، ومستودعاً حيوياً للمعرفة والأصالة والذوق والخبرة.

٢- العقيدة «الدين» ما تكرسه من منظومات قيم ومعايير حكم ومرجعيات احتكام وأحكام وحكم، وبما تقدمه من تفسير ورؤية للعلاقة بين الخالق والمخلوق من جهة، وبين المخلوق والمخلوق والبيئة والطبيعة والكون من جهة أخرى، وما ترمي إلى تحقيقه من علاقات وصلات ومعايير ومقومات وقواعد وأصول يستند إليها السلوك والعمل والتعامل بين الناس.

٣- التراث المكتوب شعراً ونثراً في كل مجالات المعرفة والإبداع والأداء وبالكلمة، والموروث الشعبي المتناقل بكل أشكال التناقل وفي مجالات تعبيره كافة، والموروث التاريخي الحضاري المعماري والفني بأنواعه.

٤- العادات والتقاليد والأعراف السائدة بين الناس، والتي تحكم السلوك الخاص أو تشف عنه في مناسبات الفرح والحزن والموت والولادة والأعياد الدينية والاجتماعية والوطنية والقومية، وفي حالات الاختلاف والحرب والصلح والسمات الخاصة والمشتركة التي تتكون خلال قرون عديدة.

٥- أساليب العيش وطرز اللباس وطرقه وألوان المآكل والمشارب وطرق تقديمها وتناولها وألوان اللعب واللهو وطرائق التعبير ومتع الفرجة وأشكالها، وما يترافق مع ذلك وينجم عنه ويمليه من آداب وسلوك ومفاهيم ومصطلحات ومزاج عام.

وحيال هذا التحدي وخلفياته وأهدافه البعيدة يلح علينا السؤال : ما هي أهداف تربية وسياسة وثقافة ومؤسسات وآفاقها في مجتمع يستشعر الخطر على وجوده وعلى كل ما يبنيه وهو في ظل احتلال وتحت تهديد مستمرين ويعيش حالة أقرب إلى السكون وحوله تقدم علمي هائل يحرزه أعداؤه والطامعون به، في الوقت الذي يشده فيه تخلفه وتسلط حكامه وفساد أنظمته وضياع حقوق أفراده وحرياتهم وفقدانه الأمن من جوع وخوف، إلى الوراء، ويجعله كل ذلك بمواجهة الإحباط وأزمات في الكثير من ميادين الحياة؟

هل يريد أن يضع أهدافاً منها التقدم والسعادة والتغلب على الطبيعة بالثقافة العلمية والمعرفة الشاملة ويكتفي من ذلك كله بالشعارات بينما يتردى في الحفر؟ أم يريد أن يتحرر من الداخل ويعيش حالة من المساواة والشعور بالمشاركة في صنع القرار والمصير ونعمة الحرية والأمن ليعمل من بعد على التقدم بالعمل والمواجهة بالأمل؟! أم أنه يعمد إلى التضحية لإحداث الصدمة والصحوة ولإحراز النصر بالشهادة أولاً لتحقيق حرية أرض وإرادة وقرار وسيادة وطنية وقومية فوق أرضه التاريخية ومن ثم يتحمل أعباء بناء شامل : فردي واجتماعي وقومي، اقتصادي وعلمي وتقني ومعرفي، للتغلب على أوضاع وسياسات وأعداء بأساليب علمية وتقنية متقدمة، أم أنه يرى أن الوصول إلى هذه الأهداف يقتضي قلب هذا البرنامج رأساً على عقب لأنه لا يستطيع أن يحرر ويبني ما لم يشبع ويتحرر ويتعلم ويملك الإرادة الواعية لأهدافها وأدواتها، ومن أجل كل ذلك يحتاج إلى الوعي المعرفي والشجاعة الأدبية ليبدأ السير في طريق الغنى الروحي والاستشراف المستقبلي والعمل المنقذ، وهو في كل هذا يحتاج إلى من ينضج رؤاه ويساهم في صوغ خياراته وينير طريقه بالشموع ويعزز مسيرته بالأمل؟!

كيف نبدأ ومن أين في واقع يتسع فيه الخرق على الراقع؟! تلك مشكلة من أبرز مشكلاتنا اليوم، ولكن لابد من أن نبدأ وأن نبدأ بداية سليمة، وتلك إحدى مهام المفكرين والمبدعين والمثقفين الملحة وإحدى مسؤولياتهم التاريخية الرئيسية.

على المثقف وسادن الفكر والإبداع المسؤول تاريخياً عن دور الكلمة ومكانتها - من وجهة نظري - ألاّ ينهزم من الداخل فيلحق الهزيمة بالآخرين، وألاّ يغرس الإحباط وروح الهزيمة في النفوس، وألاّ يضع ثقل الوعي الثقافي في خدمة العدو أو في فعل سلبي المردود يقوي العدو بإضعاف الوطن والإرادة الوطنية والقومية، وألاّ يقوض الثقة والاعتماد المتبادلين بين سلطة وثقافة ومجتمع كي يتكامل الأداء والاستشراف المستقبلي، وعليه ألاّ يغلق نوافذ الأمل أمام الناس، وألاّ يضيق عليهم ويشعرهم بالدونية ويشوه كل ما هو جميل وصحيح أو ما يمكن أن يكون جميلاً وصحيحاً مما هو أصيل وسليم في تكوينهم وخصوصيتهم الثقافية والاجتماعية والروحية، ليقودهم من بعد إلى الاستسلام وهو يتغنى بواقعية انهزامية غبية و«انفلاش» على الآخر العدو، فيكون من نتائج ذلك : القضاء على الحقوق والحريات والمصالح والتطلعات.

على الديمقراطية والهوية والشخصية الثقافية والمثاقفة البناءة ذاتها، وإماتة للمعطيات والنزعات الإيجابية التي تمكن الفرد ومؤسسات المجتمع والدولة من تقديم المبادرة الخلاقة، واجتراح الفعل المنقذ في كل اتجاه، والإبداع في الدفاع عن الذات القومية والخصوصية الحضارية، فالثقافة التي تصنع الهزيمة أو تكرسها أو توحي بها ثقافة تقوم بدور الطابور الخامس في مجتمعها، وتعمل على كسر ظهر الممانعة والمقاومة بدلاً من القيام بتعزيز موقعيهما وإسنادهما، وهي من ثم تكسر ظهر الشعب بالغفلة أو بالتغفيل والتضليل، وتسلم الوطن والأمة إلى الضعف والضياع والهزيمة، وتترك من يبيع ويفسد ويُفسد ويظلم ويطغى ويستبد ويعتدي ويغزو أوطان الآخرين ويشوه نضالهم وقضاياهم وصورهم وثقافاتهم وعقائدهم مطلق اليد والقرار موفور القوة، مكشوفة أمامه السبل والمواقع ليفعل ما يشاء، وتكون بهذا المعنى ومن هذا الموقع أشد المقاتلين إلى جانب العدو في مواقع داخلية حساسة من جبهة الوطن والأمن.

على المثقف أن يقدم على أرضية العلم والإيمان والعمل بهما، خطاباً بناءً يصب في مجرى الحق والعدل والتحرير ومعايير خلقية ومبدئية سليمة، وأن يشكل حضوراً فعالاً في ساحة صنع القرار باكتساب الثقة والقوة والجرأة، وهذا يستدعي منه أن يدقق في نوع الخطاب المجدي في الظروف والأوضاع الراهنة، ليمتلك التأثير والمصداقية والقدرة على التغيير، وأن يكون قدوة في الوعي والمسؤولية والسلوك وأساليب الحوار والتوصيل والتواصل ليقنع المسؤول ورجل الشارع بأنه يعيش الواقع وينطلق من الممكن ويدعو إلى العمل على أساس من العلم والحرص، نعم فليكن ذلك الوتر المشدود بين العمل والأمل، يد في طين الأرض، وأخرى مفتوحة على مدى التطلع والاستشراف.

إنها الثقافة، وإنه التعلق بحب جم للأمة والوطن والعدل والحرية والناس معاً، الذي يجعل أداء المثقف شبه نبوي في الاستشراف المستقبلي، ويجعله فدائياً في تحمل المسؤولية، وعقلانياً أثناء مواجهة الأوضاع القائمة، وعملاقاً في التضحية على أرضية التمسك بالحق وإضاءة طريق الناس إلى غدها بتقديم أنموذج الشمعة التي تحترق ليمشي الشعب على ضوئها إلى غد فيه الكرامة والسعادة والحرية.

إنها ضريبة المعرفة وضريبة الانتماء معاً، وهي نوع من صعق البرق لأرض تُستنبت فيها روح الخصب وتلقن كلمات الحق بهزيمة الرعد، على مطر الوعي أن يسقي عطش الروح ويستنبت في النفس زرعها الوفير وثمرها الطيب، وأهل الكلمة، من بين أهل الثقافة، مسؤولون عن الريادة وتحمل مسؤولية الأداء في العتمة في مواجهة سطوة الجهل والبغي والسوط والبطش العنصري الاستعماري البغيض، وعليهم أن يدخلوها صفاً، حزمة عيدان لا يسهل الاستفراد بها عوداً عوداً، ولهم من بعد على الناس ألاّ يقولوا لهم ما قالت اليهود لموسى : «اذهب أنت وربك فقاتلا إنا ها هنا قاعدون».

كم نحن بحاجة لاحترام الثقافة وتوظيفها في خدمة ثوابت الأمة والعقيدة، ومستقبل الأجيال والوطن والمعرفة، وكم نحن بحاجة إلى أن نستظل بظل سيوفها التي لا تثلم، ونحن نحرض على خير الجهاد وتحرير إرادة العباد وعقولهم وقلوبهم من تسلط وقهر، وننسج حول الأرواح المرتعشة من سطوة التسلط والقهر والبغي، بردة أمان من جوع وخوف، باستخدام الكلمة والوعي المعرفي استخداماً شريفاً نظيفاً يحقق مصلحة الإنسان والوطن والدولة والأمة.

وكم ينقصنا أن نتفهم علاقة ينبغي أن تصل إلى نوع من التكامل بين السياسة والثقافة، حيث يرى كل من السياسي والمثقف أنه يعمل من أجل أهداف أسمى وأبقى وأهم من شخصه ونزعاته ونزاعه مع الآخر، وأنه يبقى في ذهن الناس وتاريخ الأمم من أخلص للناس وما خدم الحرية والحق باجتهاد وصدق.

إن مواجهتنا لاحتمالات المستقبل وتلمسنا لمعالم صورته التي نستشرفها تحتاج أولاً وقبل كل شيء إلى أشخاص يفيضون معرفة ومبدئية وثقة بالنفس ووعياً واحتراماً للآخر الشريك ولحقه بالاختلاف تحت سقف الوطن والقانون والانتماء، ويكون إيمانهم عميقاً وصادقاً بمستقبل أفضل للبشرية كلها، ويقدمون رؤية هي نور، وقوة حق، وقوة تحمي الحق.

إن هذا الأنموذج الذي ننشده ينبغي أن نعده، وأن يمتلك الزاد ويقدم الرأي ويدخل مدخل الحوار الثقافي باقتدار، ولكن يداً واحدة لا تصفق، فنحن في المحنة والامتحان، ونحتاج إلى طرف أساسي في الحوار لا ينطلق من أحكام مسبقة، وعدوانية مبيتة، وعنصرية مقيتة، وادعاء مطلق بأنه يمتلك الحق والعصمة، ويعلي مصلحته على مصلحة الآخرين بحكم امتلاكه للقوة من جهة واعتقاده بأنه من عنصر يجوز له ما لا يجوز لسواه؟!

مشكلتنا اليوم مع الآخر المنقض علينا بعَتَه أنه يدعي الحضارة ويتهمنا بالعداء لها، وأنه لا يحاورنا وإنما يملي علينا شروطاً، ويريد أن يمحونا ليعيد تكويننا على شاكلته، وأننا بنظره لا يجوز لنا أن نرفض منه الاستعمار و«الشراكة» التي يقدمها لنا.

وليس لنا سوى الخضوع لشروطه والتنازل عن مقومات وجودنا وهويتنا وشخصيتنا الثقافية ومصالحنا، وعندما نرفض أن نفعل ذلك يرشقنا مباشرة بالصواريخ ويهددنا بالإبادة انطلاقاً من قواعد سقيمة يضعها، يزدريها العقل وتزري بالعقل، مثل : «من ليس معنا فهو ضدنا» ومن لا يخضع لإرادتنا سوف نحرره من نفسه بالتبعية والموت.

هذا هو منطق الرئيس الأمريكي جورج بوش وحليفه «رجل السلام» أرئيل شارون؟! هذا هو منطق العدو القوي الذي نواجهه اليوم، ويهدد وجودنا وثقافتنا ولغتنا ومصالحنا العليا، ولديه أطماع كبيرة ومخططات متقنة للوصول إلى ما يريد؟! فهل أمامنا سوى السعي إلى امتلاك قوة بالمعنى الشامل للقوة ندفع بها عن أنفسنا وثقافتنا الغزو وتجعل لحقنا ومنطقنا ثقلاً ومعنىً؟!

وإلى أن نصل إليها لابد لنا من تجنب الكوارث التي يمكن أن تلحق بوجودنا المهدد وجسدنا الممدد على قارعة طريق الأمم، أو نعمل من أجل الخروج من هذه الحالة وفق خطط وبرامج أساسها العلم، يساهم في وضعها الحكماء والعلماء والمفكرون والمبدعون والقادة الذين يستحقون ألقابها، وينضجها الحوار المسؤول في اللقاءات، الحوار الذي نخرج منه ونحن أقوى مما دخلنا، ويقودنا إلى إغناء المشترك الذي نبني صرحه حجراً بعد حجر ومدماكاً فوق مدماك، حتى لا نبقى في متاهة بين الرغبة في الحوار والرشق بالنار؟!

**# رئيس اتحاد الأدباء والكُتّاب العرب**

بريشة/آمنة النصيري

# الثقافة كبعد غائب عن التنمية

□ مفهوم التنمية والمصطلحات المتصلة به، مثل التنمية الشاملة والتنمية المستدامة، كلها صناعة غربية لجأ إليها العلماء والمفكرون والسياسيون في الغرب لترسيخ النظرة الغربية الاستعلائية في التمييز والتفرقة بين المجتمعات الغربية الراقية المتقدمة والمجتمعات اللاغربية التي يطلق عليها الآن اسم المجتمعات «النامية» كبديل مهذب عن كلمة المجتمعات «المتخلفة» التي كانت تستخدم إلى ما قبل العقد السادس من القرن الماضي.

ترجع التفرقة بين زمرتي المجتمعات الغربية والشرقية إلى القرن التاسع عشر، وهو عصر التفكير التطوري وعصر الاستعمار والسيادة السياسية والسيطرة الاقتصادية الغربية على العالم اللاغربي، وكان من الطبيعي والمنطقي أن يضع الغرب المسيطر المعايير والمقاييس التي تميز على أساسها بين ما هو متقدم وراقٍ وما هو متخلف ولكنه يجاهد لتحقيق بعض النمو والارتقاء بمساعدة الغرب وتحت إشرافه، وكان الغرب يحرص دائماً على التنصل من مسؤولية تدهور الأوضاع في مجتمعات العالم الثالث التي خضعت للاستعمار..

**د . أحمد أبو زيد #**

ويرد ذلك التردي إلى طبيعة التكوين الذهني والاستعداد النفسي لهذه الشعوب، إلى جانب الظروف البيئية غير المواتية، والتي تعجز تلك الشعوب عن السيطرة عليها والتحكم فيها نتيجة لذلك القصور الطبيعي في قدراتها، والدليل على ذلك هو أن هذه الشعوب ذاتها لم تفلح في الارتقاء بنفسها حتى بمساعدة الغرب بعد أن نالت استقلالها السياسي منذ أربعة عقود كاملة، وكل الندوات والمؤتمرات الدولية التي عقدت خلال الثلاثين أو الأربعين سنة الماضية لمناقشة الأوضاع السياسية والاقتصادية والاجتماعية في العالم يسيطر عليها تبادل الاتهامات عن المسؤول عن حالة التردي التي تقاسي منها مجتمعات العالم الثالث (النامية) من دون أن تصل إلى نتيجة، كما أن معظم المناقشات ذاتها كانت تدور حول الأوضاع السياسية والاقتصادية ولا تكاد تتطرق إلى المشكلات الاجتماعية إلاّ إذا كان لها بعد اقتصادي مع إغفال الأبعاد الثقافية للتنمية إغفالاً يكاد يكون تاماً، إلاّ في السنوات الأخيرة بعد أن ألقت اليونسكو بثقلها في مجال التنمية ونبهت الأذهان إلى أن أحد أهم أسباب فشل معظم جهود التنمية في العالم الثالث هو عدم الاهتمام بما فيه الكفاية بالثقافات الوطنية في تلك المجتمعات، وإغفال مقتضياتها ومتطلباتها عند التخطيط والتنفيذ اللذين يتولى أمرهما في العادة أشخاص أو هيئات قد يكونون على جانب كبير جداً من الكفاية العالية ولكنهم لا يعرفون شيئاً عن تلك الثقافات الوطنية، ولذا يضعون مخططاتهم من منظور أجنبي غربي، لا صلة له بواقع الحال في المجتمعات التي يخططون لتنميتها.

وكما يقول جو ماري شانكر في مقالة له عام ١٩٩٨م في نشرة (إكسبرس) التي يصدرها المركز الدولي لمعلومات التنمية بكندا : إن مفهوم التنمية لم يعد قاصراً الآن على محاولة اللحاق اقتصادياً بالدول الأكثر تقدماً بقدر ما يهتم بالكشف عن قدرات الشعوب النامية وإمكان استغلال هذه القدرات على المستويات المحلية والإقليمية والعالمية، مما يعني ضرورة تعرف ثقافات هذه الشعوب ودراستها دراسة عميقة لفهمها والاسترشاد بها، كما يعني أن التنمية ذاتها خرجت من نطاق الاقتصاد على الاهتمام بمشكلات اقتصادية ضيقة محدودة ومحددة والانطلاق إلى مجالات أوسع وأرحب يصعب تناولها بكفاية من دون الإحاطة الشاملة والدقيقة بتلك الثقافات الوطنية، كما أن الالتفات إلى هذه الثقافات لا يعني فقط معرفة مدى تقبل تلك الثقافات للمشروعات المقترحة من الهيئات والمنظمات الغربية ولا حتى مجرد الاسترشاد بالعادات والأعراف والقيم الثقافية التقليدية في وضع مشروعات التنمية، وإنما هو يقتضي في الوقت ذاته تعرف (الهوية الثقافية) للمجتمع، لأن هذه الهوية تختلف من دولة إلى أخرى حتى داخل الدائرة الثقافية الواحدة التي تنتمي إليها هذه الدول، فإذا كانت مجتمعات الدائرة الثقافية الواحدة تشترك جميعها في بعض الخصائص والمقومات الثقافية الكلية أو العموميات الثقافية، فإن كلاً منها ينفرد بخصائص وعناصر ثقافية معينة تميزه عن غيره (الخصوصيات الثقافية)، وهذه الخصوصيات الثقافية تلعب دوراً مهماً في قبول أو رفض مشروعات التنمية بحيث أن ما قد يتقبله المجتمع المصري والإنسان المصري من مشروعات قد يرفضها المجتمع السعودي والإنسان السعودي - مثلاً - على رغم انتماء المجتمعين وأعضائهما للدائرة الثقافية العربية الإسلامية، وذلك من دون نظر إلى توافر الإمكانات والحاجات المادية لتلك المشروعات، فالعامل الأساسي والحاكم هنا هو نوع النظرة إلى الذات وإلى العالم وإلى الحياة، وعلى سبيل المثال فإن إغفال بُعد الهوية الثقافية كان وراء فشل مشروع كان يبشر في ظاهره بالنجاح وهو مشروع برنامج الغذاء العالمي الذي أريد تطبيقه في الصحراء الغربية بمصر، وبمقتضاه كانت المنظمة العالمية توفر الغذاء للبدو والأعلاف للقطعان على أمل أن يؤدي ذلك إلى الاستقرار في الأرض والتحول إلى الزراعة، ولكن نظرة البدو المتعالية إلى أنفسهم وإلى الفلاحين وإلى «استعباد» الأرض الزراعية للفلاح الذي يرتبط بها والحرمان من حياة التنقل والترحال والحرية، أدت إلى فشل المشروع تماماً على الرغم من حالة الشقاء والشظف التي يعاني منها البدو بحكم أسلوب الحياة البدوية في الصحراء، ومؤتمر اليونسكو في مكسيكو سيتي عام ١٩٨٢م عن السياسات الثقافية ينص على أن الثقافة تتخلل نسيج الحياة كله، حيث قد يمكن الخلط بينها وبين الحياة ذاتها وعدم القدرة على الفصل بينهما، ومع ذلك فإنه كثيراً ما يعترض بعض المهتمين بالتنمية على أخذ الثقافات التقليدية في الاعتبار عند التخطيط والتنفيذ بزعم أن الثقافة محافظة بالضرورة، بل ورجعية وتشد الإنسان إلى الماضي بحكم علاقتها بالتقاليد والقيم والأعراف المتوارثة، وهو ما يتعارض مع مفهوم التنمية بأبعادها التقدمية والمستقبلية، وأنه لكي تلحق المجتمعات النامية بالعالم المتقدم فإنه يتعين عليها أن تتخلص أولاً من كثير من عناصر الثقافة التقليدية بكل ما تحمله من أوهام تمنعها من مسايرة الأوضاع المتغيرة في العالم المعاصر، وأن تتقبل القيم والأوضاع وأنماط السلوك وأساليب التفكير العقلاني السائدة في الغرب المتقدم حتى تستطيع تحقيق التقدم الاقتصادي المنشود والتحرر من نظم الحكم التقليدية وإقرار حقوق الإنسان، وهذه مطالب يصعب تحقيقها بلا شك، لأنها تعني انسلاخ المجتمع من تاريخه وتراثه الذي يؤلف العنصر الأساسي في هويته الثقافية والاجتماعية، لذا تعتبر هذه المطالب نوعاً من الانتحار بما يطلق عليه بعض الكتاب الغربيين أنفسهم اسم «أسفكسيا الثقافية»، وأنه مهما يكن من شأن الثقافات الوطنية التقليدية وارتباطها بالماضي أكثر من ارتباطها بالحاضر والمستقبل - كما يتصورها الغرب - فإن هذه الثقافات تؤلف جزءاً مهماً من التراث الإنساني الذي لا يمكن التفريط فيه أو السماح بزواله واندثاره، ويبالغ البعض في ذلك إلى حد القول إن مشروعات التنمية التي تتعارض مع هذا التراث وتتطلب التنكر لبعض عناصره يجب الانصراف عنها تماماً حتى وإن كان ذلك على حساب المكاسب الاقتصادية والسياسية التي يمكن أن تحققها هذه المشروعات.

ويمكن الخروج من هذا المأزق الناشئ عن تضارب وجهات النظر إذا أمكن توسيع النظرة إلى مفهوم الثقافة حتى يشمل - إلى جانب الأبعاد الماضوية - النظرة إلى العالم، فتعتبر الثقافة أداة للاتصال والتواصل من خلال اللغة والفكر، وعاملاً مساعداً في توجيه السلوك في الحاضر والمستقبل والتخطيط لذلك المستقبل من خلال الاستشهاد والاسترشاد بمسيرة المجتمع خلال التاريخ، واعتباره معياراً مهماً للتفاضل الاجتماعي والتعاون المتبادل داخل المجتمع، حسب ما يقول علي المزروعي، أستاذ السياسة الكيني - الأمريكي، والمشكلة الأساسية في هذا كله ناجمة عن أن الغرب ينسى أو يتناسى أن ثقافات العالم اللاغربي، بما في ذلك الثقافات البدائية كما كانت تسمى حتى وقت غير بعيد، كانت دائماً مصدر إبداع، بل وتجديد في حدود الإمكانات المتوفرة لها، كما كانت تتمتع بالقدرة على التشكل تبعاً لتغير الظروف المحيطة بها، وأنها لم تكن في وقت من الأوقات جامدة أو عاجزة عن التطور على الرغم من الفوارق الشاسعة بينها وبين ثقافات الغرب التي ظهرت نتيجة ظروف وأوضاع مختلفة وخاصة بها، وليس المقصود من ذلك الدفاع، بأي حال من الأحوال، تدهور الأوضاع في العالم الثالث.

ووجود هذه الفجوة الواسعة والسحيقة بين المجتمعات الغربية والمجتمعات اللاغربية على المستويات كافة وتطلع شعوب العالم الثالث إلى ردم هذه الفجوة واللحاق المتقدم واستعداد العالم الغربي - ولو على استحياء وبكثير من التردد - في المساعدة، أمور تتطلب الفهم المتبادل، وهي مسألة غير هينة وتحوطها كثير من الشكوك الراسخة في العالم الثالث والمتوارثة عن تاريخ استعماري طويل مملوء بالمظالم ومظاهر الاستبداد والاستعباد والاستغلال.

ولكن هذا لا يعني استحالة التوصل إلى درجة معقولة من التفاهم والتعاون مما يخفف من حدة الانقسامات القائمة الآن على أرض الواقع والتي تعبر عن نفسها في ذلك الصخب العالي الذي يصاحب المؤتمرات الدولية في استنكار ورفض واضحين لمواقف وسياسات وتاريخ الدول الغربية وعلى رأسها أمريكا بطبيعة الحال.

**# انثروبولوجي مصري**